

المجلد: 05 / العدد: 01 (2021)، ص.ص. 68/55

أزمة البحث اللساني في الوطن العربي Linguistic research crisis in the arab world

د. لزرق زاجية

LAZREGZADJIA38@GMAIL.COM

جامعة تيسمسيلت

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2021/06/02

تاريخ القبول: 2020/10/08

تاريخ الاستلام: 2020/01/18

الملخص:

أود أن تكون هذه المقالة إثارة علمية لإشكالية العلاقة بين المثقف العربي والبحث اللساني، أو بالأحرى علاقة اللسانيات بالثقافة العربية، وكيفية تلقينا واستقبالنا لهذا العلم الوافد من الغرب، باعتبار أن الإشكالية في حد ذاتها قائمة في جلها على وعي مغلوط بالكثير من مبادئ أو أهداف اللسانيات، وتأسيسا على هذا سنتناول الدراسة هذه المحاور؛ الأسس السوسرية للسانيات الحديثة. نحن وعلم اللغة (اللسانيات)، دور المجتمع في تقدم اللغة و تأخرها، واقع اللسان العربي و حاضره، بعض الحلول المقترحة .

الكلمات المفتاحية: اللسانيات؛ التعليمية؛ الدرس اللساني، التدريس؛ الجامعة الجزائرية.

Abstract:

I would like this article to be a scientific raising of the problem of the relationship between the Arab intellectual and linguistic research, or rather the relationship of linguistics to Arab culture, and how we are indoctrinated and received this

science from the West, considering that the problem in itself is based on a false awareness of many principles or a On the basis of this, the study will address these themes, the so-called foundations of modern linguistics. We and linguistics, the role of society in the progress and delay of language, the reality of the Arabic language and its present, some of the proposed solutions.

Keywords: Linguistics; Didactic(Educational); Linguistic lesson, teaching; University of Algeria.

مقدمة:

حين فكرت في كتابة هذه المداخلة التي عنوانتها ب: أزمة البحث اللساني في الوطن العربي تساءلت: هل الموضوع جديد؟ لقد بدا لي بسرعة أنه موضوع تناوله الجمعيون وغيرهم في عدة مناسبات، وأنه قد عولج في بعض الصحف والمقالات، منذ العقد الخامس من القرن الماضي، أي منذ أن وفد علم اللغة الحديث (علم اللسانيات) إلى عالمنا العربي، وربما قبل ذلك، ثم بدا لي أن موضوعا كهذا جديد ولو كان قديما لأنه متجدد تجدد اللغة نفسها وتجدد الإعلام والمجتمع بكامله، وكما يقول رولان بارت: "إن عصرنا هو عصر حدثين أساسيين قد هيكلنا عقلا بشكل جذري امتد طويلا، أولا اكتساح أسرار عالم اللغة و ثانيا غزو الفضاء".

غير أن الجديد والملفت للانتباه في هذا الموضوع أنه يبحث في إشكالية الدرس اللساني في جامعاتنا العربية بصفة عامة و الجزائرية بصفة خاصة، وما أحوج جامعاتنا ولقاءاتنا ومؤتمراتنا وندواتنا و بحوثنا العلمية لمثل هذه الأعمال الجادة و المفيدة والنبيلة التي تحمل رؤى مستقبل مثالي للغة العربية و كذا الإنسان العربي الذي يشكو من ضعف لغته فبات لزاما علينا البحث في الأسباب لإيجاد الحلول المناسبة، وأن نعمل كافة للمحافظة على هذا الإرث الأصيل الذي هو عنوان الحضارة وميثاقها.

1- الأسس السوسرية للسانيات الحديثة:

كانت اللسانيات الحديثة تمثل انطلاقة فريدة في التعامل مع الظاهرة اللغوية بفضل طريقتها البنيوية ومنهجها الوصفي الذي كان من أبرز المناهج فاعلية وأكثرها موضوعية حتى أضحت به نموذجاً يحتذى بموضوعيته ودقة نتائجه. لم تكن هي الأخرى متقطعة عن نتائج الدراسات اللغوية ومنهجها، وإنما انطلقتها مع العالم اللغوي السويسري فردينان دي سوسير كانت استجابة لحياة الدراسات اللغوية التاريخية في تقديم نتائج موضوعية حول الظاهرة اللغوية. فتأثر دي سوسير بعالمي الاجتماع ويني *Witny* ودور كايم *Dur kheim* وعلم النفس العقلي⁽⁰¹⁾ وعلم الاقتصاد جعله يؤسس للسانيات حديثة، لعلم اجتماع تنظيمي (*Science social systématique*)⁽⁰²⁾ بتجاوز أطروحات النحويين في تلك المرحلة.

وهنا يتجلى لنا الأفق المعرفي الذي تكون من خلاله الطرح السويسري الذي اهتم أساساً بمنطق تطبيق الطريقة العلمية في دراسة اللغة، والتي يبدأ فحصها و وصفها في إطار زمني محدد و منقطع عن أي اتصال بالتاريخ، ولكن الغريب في هذا كله أن لسانيات دي سوسير بقيت مدة نصف قرن قبل أن تكتشف قيمتها العلمية الحقيقية حيث استقبلتها الأوساط العلمية في تلك المرحلة بالرفض و خاصة بألمانيا، ولم يتقبلها أو يعترف بقيمتها إلا القليل، من بينهم العالم اللساني الفرنسي مبي *Meillet*⁽⁰³⁾.

لذا علينا الإقرار و الانتباه إلى أن اللسانيات كانت موجودة قبل دي سوسير و بآلاف السنين، كما يجب أن نعلم "أن الصورة المثلى التي خص بها لم تكن تتصف بالصفاء التام، ذلك لأن نظرياته لم يحظ جميعها بالموافقة المطلقة، بل قام بعض الدارسين بنقدها و التعديل منها، أو بدحضها و تجاهلها"⁴.

نعم إن اللسانيات كانت موجودة قبل دي سوسير بزمان طويل في عديد من الثقافات، و في الثقافة العربية على وجه الخصوص، لكن سوسير وجهها إلى مسالك لم يسبق أن سلكتها، أو إنها كانت ستتأخر في سلوكها، وربما كان ذلك سيحدث بطريقة مختلفة لولا الأثر الذي أحدثه نشر كتاب "دروس في اللسانيات العامة" سنة 1916⁵.

إن أهم المنطلقات الجديدة في البحث اللغوي عند دي سوسير هي تحديده لموضوع اللسانيات والمتمثل في دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، وهذا التحديد هو إطار مجال البحث اللساني إلى يومنا هذا. وقد كان لازماً أن يؤسس الأبعاد المعرفية للنظرية اللسانية البنيوية من هذا المنطلق، وقد كان هذا المنطلق محددًا لتصنيف علم اللسان وفروعه وعلاقته بالعلوم الأخرى، كما أعاد في ضوءه تحديد جميع عناصر المكونات المفهومية للغة. وقد بدأ عدّ اللغة كأساس لفهم تصور من ذاتها ولذاتها، وبذلك فصل أهداف الدراسة اللسانية لموضوع اللغة عن الأهداف غير اللغوية.

2- نحن و علم اللغة (اللسانيات):

من الملاحظ أنّ مقررات تعليم العربية لأبنائها أو الناطقين بها تخلو من أي شيء من علم اللغة، وهذا أمر منطقي، كما أشار الدكتور عبده الراجحي⁽⁰⁶⁾، لأنّ علم اللغة حمل معه شبهات كثيرة حين وفد إلى العالم العربي منذ العقد الخامس من القرن الماضي. إذ كان يحمل معه دعوة إلى دراسة اللغة المنطوقة في صورها اللهجية. ذلك أنّ اللسانيين ينطقون من مسلمة مفادها أنّ الكلام يأتي في المرتبة الأولى ثمّ تليه بعد ذلك الكتابة، لذلك تهتم اللسانيات بأسبقية اللغة المنطوقة على المكتوبة، على حين أنّ العلوم اللغوية التقليدية فعلت العكس. إضافة على ذلك فاللسانيات تهتم باللهجات (اللغات العامية غير المعيارية) ولا تفضل الفصحى (اللغة المعيارية) على غيرها، على النحو الذي كان سائداً من قبل. فاللهجات على اختلافها و تعددها لا تقل أهمية عن سواها من مستويات الاستخدام اللغوي⁽⁰⁷⁾. وحتى اليوم يميل العديد من الناس إلى الاعتقاد بأنّ اللغة الأدبية التي تدرس في المدارس هي التي تشكل موضوع البحث العلمي.

وكما أشار الدكتور عبده الراجحي في معرض حديثه عن علم اللغة الحديث أنّه قد تخصّص عدد من أصحابه في درس اللهجات فظنّ الناس أنّه جاء يحارب الفصحى. وانضاف إلى ذلك ما بدا في كتبهم من غرابة ومن مصطلحات غير مألوفة، ومن نقد للتراث اللغوي عند علماء العربية القدماء. ومع ذلك كله فإنّ علم اللغة صار نموذجاً في العالم المتقدم لكثير من

العلوم بما أصّل من نظريات ،وبما طوّر من مناهج للتحليل، وعلى طلابنا في التعليم العام الأخذ به ومنه لأنه يساعد على تشكيل نمط التفكير العلمي عندهم.

وإلى مثل هذا القول ذهب الدكتور محمود السعران إلى القول أنّ جمهور المشتغلين بالدراسات اللغوية عندنا يرفضون النظر في هذا العلم الجديد (...) ودراساتهم مازالت تدور حول محور قديم قد تحسن فيه أو تبسط منه، ولكنه ليس محور العصر، وهي بذلك تنكر أو تُهمّل ثمرات و جهوداً وفيرة. إنها في دراستها اللغوية أشبه بالجغرافي الذي ينشئ بحوثه على أساس أن الأرض مسطحة ،أو يشغل بالمسائل الطبيعية لم تسمع أذناه بقانون الجاذبية، أو بالفلكي الذي لا تعدو معرفته معرفة عرب الجاهلية الأولى⁽⁰⁸⁾.

بل شرح لنا حالة و وضعية الدراسات اللغوية العربية في مرحلة وفود علم اللغة إلى العالم العربي ،ومن ذلك أنّ العناية به كانت جد ضئيلة، إذ اهتمّ بتدريسه بعض المستشرقين فقط ،مع خلط للكثير من المفاهيم والمصطلحات كاخلط بين فقه اللغة وعلم اللغة مثلاً. مع قلة المصطلحات اللسانية العربية و تخلف استعمالها. وكذلك تحدث عن التصورات الخاطئة عن البحوث في مجال العامية، والمشاكل المترتبة بين الفصح والعامي. وغيرها من العوائق و العوارض والصعوبات التي تلقاها علم اللسانيات في هذه المرحلة المبكرة من وجوده⁽⁰⁹⁾.

ومهما يكن من أمر فاللسانيات غدت من أهم و أوسع العلوم الإنسانية و أكثرها انتشاراً على الاطلاق، وليس ثمة علم يضاهيها في استقطابها للكثير من المعارف الأخرى، "فمن فضول القول لدى ذوي العلم والرجحان أن يتحدث المرء اليوم عن منزلة اللسانيات ووجاهة شأنها ،فلو فعل لكان شأنه لديهم شأن من ينوه بالرياضيات الحديثة من بين أهل العلوم الدقيقة،أو شأن من يمتدح قيمة التحاليل العضوية وكشوف الأشعة في حقل العلوم الطبية"⁽¹⁰⁾. وقد ظهرت ملامح التأثير واضحة بين اللسانيات والعلوم الطبيعية -مثلاً- و بصفة خاصة في أعمال تشومسكي الذي بنى نماذجه على أساس علمي محض، وهذا ما سعى إليه لينبيرغ أيضاً، فقد "دعا هذان العالمان إلى أنه ينبغي على علم اللسانيات أن يكون فرعاً من العلوم الطبيعية، وبالاخص من علم البيولوجيا يُدرس دراسة علمية تشريحية"⁽¹¹⁾.

لكن وللأسف، فإن علم اللسان لم يحظَ في الوطن العربي بعد بالأهمية التي حظي بها في الغرب، إذ على الرغم من "مرور نصف قرن على معرفته و العلم به، والبحث فيه، وتدريسه في الجامعات مازال علماً غريباً على جمهور المثقفين في الوطن العربي، ناهيك بجمع غفير من القائمين على تعليم اللغة العربية في المدارس والمعاهد، وتلك -لاشك- آفة من آفات انفصال الجامعات العربية عن مجتمعاتها"⁽¹²⁾.

وكما يقول الدكتور منذر عياشي -وغيره من باحثين كثر- فإن اللسانيات ما تزال ذلك المجهول الذي يُثير فينا ريباً و شكاً وتوجساً و خوفاً أكثر مما تثير فينا نزعة- و لو فضولية- لمعرفة موقعنا من واقع الثقافة والعلم و المعرفة في العالم⁽¹³⁾.

و في هذا التصريح دلالة واضحة على أن علم اللسانيات مازال علماً غريباً على جمهور المثقفين في الوطن العربي، على الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على دخوله هذا الوطن، وعلى الرغم من أنه يُدرس في الجامعات العربية و كَوْن ويُكوّن فيه آلاف الأساتذة وملايين الطلبة. فبعدما أصبحت اللسانيات -كما رأينا- رائدة العلوم الإنسانية في الغرب و قائدها نجدها تعاني أزمة (*crise*) خانقة عندنا نحن العرب، ولكن لماذا؟ ما هي أسباب هذه الأزمة؟ وما هي مسبباتها؟ وما هي الحلول الناجعة للقضاء عليها أو للحد منها؟ أعتقد أن الإجابة على هذه الأسئلة مجتمعة، أو الإجابة على بعضها على الأقل تقودنا إلى البحث في تاريخ اللسان العربي عامة، بما أن الأزمة، أزمة لسانيات (أو البحث اللساني العربي) وهي تتعلق بهذا اللسان على وجه التحديد.

3- دور المجتمع في تقدم اللغة و تأخرها :

إنّ اللغة ظاهرة (أو مادة) اجتماعية، تنعكس عليها وكذلك من خلالها كُُلّ الظواهر التي تسود المجتمع من رفعة أو انحطاط، ومن تقدم أو تأخر، ومن نهوض أو كبوة. ولذلك فإن اللغة تنهض بنهوض المجتمع وتطوره، وتسقط بسقوط المجتمع و تأخره، ومن ثمّ -فباللغة كائن اجتماعي بالطبع - كما يقول جرجي زيدان- أي أن تقدمها وتأخرها يتوقفان في المقام الأول على مدى استعمالها في المجتمع. فهي من ناحية أخرى تنمو وتتطور وتبلغ أوج

نضجها وعنفوانها إذا لم يُقصها المجتمع من الاستعمال في أي من قطاعاته وأنشطته. وهي من ناحية أخرى تتعطل في مسيرة نموّها وتطورها ونضجها إذا وقع إقصاؤها جزئياً من الاستعمال في المجتمع. وهي في مرحلة ثالثة تتعرض إلى الموت الفعلي إذا حرّمها المجتمع بالكامل من دنيا الاستعمال⁽¹⁴⁾.

ومن هنا لا يمكننا أبداً أن نجد في العالم سواءً في القديم أو في العصر الحديث، لغة متطورة في مجتمع متأخر حضارياً وصناعياً، كما لا يمكننا أن نجد من ناحية أخرى مجتمعات متقدماً حضارياً وصناعياً، وفي نفس الوقت لغته متأخرة أو بدائية. فهل يصدق هذا الطرح السوسولوجي على لغتنا العربية أم لا؟ باعتبار اللغة هي المحتوى وهي المضمون وهي المرآة لكل حضارة وثقافة، "ويصدق هذا كثيراً في حال مجتمعات وطننا العربي منذ أصبحت اللغة العربية بعد الفتوحات الإسلامية قاسماً مشتركاً بارزاً لسكان منطقة ما بين الخليج والمحيط. فالتضامن القوي منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً بين شعوب العالم العربي أدّت وتؤدي فيه لغة الضاد دوراً مركزياً"⁽¹⁵⁾.

غير أنني لازلت لم أُجب عن التساؤل المطروح، وأعتقد أن الإجابة عنه تقودني إلى التعرف على حالة أو وضعية اللسان العربي فيما مضى، لأنه لا أحد يستطيع أن ينكر أن ماضي اللسان العربي كان حياً وحاضراً ومنتجاً، وهذا الماضي كان يتركز على عبقرية اللغة العربية في لسانها و تطبيقاتها التي استوعبت أدق العلوم التقنية، والدليل على ذلك ما أنتجه وأبدعه ابن الهيثم، وابن حيان، و ابن سينا، والرازي، والخوارزمي. وغيرهم من علماء العربية القدامى.

وإنّ الشهادة الدامغة حول ذلك العصر تؤخذ من علماء غير العرب، فهذا الباحثة الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) يصوّر كيف أصبحت اللغة العربية لغة عالمية في الفترة الممتدة من منتصف القرن السابع إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي: "إنّ العربية أصبحت لغة عالمية في جميع الأقطار التي دخلها العرب حيث خلفت تماماً اللهجات

التي كانت مستعملة في تلك البلدان مثل السريانية و اليونانية والقبطية والبربرية ،إلى آخره" (16).

وهذه العالمة الألمانية زيغريد هونكه تقرر في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب بعظمة العلوم العربية وتأثيرها على الغرب أيضاً، و هذا الكاتب المسيحي ألفارو *Alvaro* و هو من رجال القرن التاسع الميلادي يندد بشدة بجهل مواطنيه باللغة اللاتينية التي قضت عليها اللغة العربية تماماً في الأندلس، فقال: "جميع الفتيان المسيحيين المبرزين لا يعرفون سوى اللغة العربية و الأدب العربي، فهم يقرؤون الكتب العربية ويدرسونها بكامل الحرارة ويتهافتون على اقتناء المكتبات الضخمة مهما كلفهم ذلك من ثمن، ويعلنون على الملأ حيثما وجدوا أن الأدب العربي شيء بديع (...). ما أعظم الألم ! لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم الدينية، ولا تكاد تجد واحداً بين الألف يحسن تحرير رسالة باللغة اللاتينية إلى صديق له (...). أما اللغة العربية فإنك تجد أفواجاً من الناس يُحذقون التعبير بها بكامل الأناقة" (17).

هذا هو حال اللسان العربي في مرحلة القرون الوسطى، فقد كان هو اللسان الأول في العالم الإسلامي وغير الإسلامي و كانت اللغة العربية على هذا الأساس هي لغة الإدارة، والثقافة، والعلم، والتعليم في الجامعات، وهي لغة الاتصالات الدولية بين الكثير من الشعوب والأمم، وهذا بشهادة الباحثين والمنصفين من علماء الغرب أنفسهم. إذن هذا هو حال اللسان العربي قديماً، فما حاله اليوم في عصر العولمة؟ و ما حاله اليوم في بلادنا الجزائر؟

3- واقع اللسان العربي و حاضره مع اقتراحنا لبعض الحلول:

من منظور تشخيص واقع اللسان العربي، نلاحظ أن لساننا العربي الذي كان لساناً عالمياً ابتداءً من القرن الثاني حتى نهاية القرن الثامن الهجري وساعده في ذلك بعض الدعائم الأساسية والتي منها: حركة تعريب الدواوين أو الإدارة الحكومية في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عام 76 هجرية، إلى حركة إصلاح متن اللغة العربية و تقعيد قواعدها على أسس علمية و هو ما تمثل في الحركة اللغوية النشيطة التي نهضت بها مدرسة الكوفة و البصرة و بغداد لمدة قرن كامل، وأخيراً حركة الترجمة واسعة النطاق من اللغات العالمية والحضارية قبل

الإسلام إلى اللغة العربية التي نهضت بها عدة مدارس كمدرسة الإسكندرية وأنطاكية والرها وحران ونصيبين، وجند بسابور، وبيت الحكمة ببغداد. حتى أصبح اللسان العربي في تلك الآونة من أغنى ألسنة العالم وأرقاها علمياً وفكرياً وحضارياً وثقافياً.

غير أن "وضع اللسان العربي اليوم ليس بمعزل عن وضع البلاد العربية عموماً، وحالة البلاد العربية قد تكون في غنى عن الوصف إذا ما نظرنا إليها من عدة زوايا، ويكفي أن نُشير في هذا الصدد إلى التخلّف الذي تعيشه هذه البلاد، وهذا التخلّف يظهر في جوانب حياتية عديدة. هذا إلى جانب حالة التبعية التي لا يُمكن إنكارها سواءً منها السياسية أو الاقتصادية أو حتى الثقافية و الفكرية أيضاً، فضلاً عن هذا حالة النقل (*Le transfert*) التي نعيشها: النقل التكنولوجي والمعرفي والعلمي والثقافي وغيرها، وبإيجاز إنّ وضع اللسان العربي في واقعنا اليوم هو وضع الإنسان العربي في عصر أبرز سماته العولمة وتطور التكنولوجيات الحديثة والاتصال والإعلام"⁽¹⁸⁾. لذلك لا بُد أن تتضافر الجهود لحلّ هذه الأزمة المتعلقة بواقع اللسان العربي ومستقبله ومن بين الحلول التي أقترحها ما يلي:

يبدو لي في الوقت الحاضر أنه ممّا يُساعد في تمكين اللسان العربي على أن يصبح لسان علم وتقنية هو الدعوة إلى الإصلاح التربوي الذي هو أول مبادئ التقدم عنده، والإصلاح التربوي يعني الإصلاح اللغوي الذي تنشده المعرفة العلمية في وقتنا الحالي "إذن و في إطار إصلاح المنظومة التربوية في الجزائر يتطلّب منا الاعتماد على الذات و على استغلال طاقاتنا البشرية المؤهلة لتطوير استراتيجيتنا التعليمية فضلاً عن محاولة خلق التكتلات مع المجتمعات التي تربطنا بها اللغة و الأصالة و التاريخ و القيم الحضارية"⁽¹⁹⁾.

وإلى جانب ذلك ينبغي الإسراع في تعريب التعليم في كافة المراحل، مع إعادة النظر في برامج التعليم ومناهج وطرق التدريس في المراحل الأربع (من التعليم الابتدائي إلى التعليم العالي)، وفق المتطلّبات المعرفية والعلمية الجديدة، والأكثر من ذلك ينبغي الإيمان العميق بمشروع ترقية اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم، وهي قوة حضارية وثقافية وتاريخية عند المسلمين. وهذا يتطلب منا إنشاء مؤسسات علمية ومراكز للبحث والترجمة ومجامع علمية

تهتم بالتطورات التاريخية لفلسفة التربية عامة والتعليم التقليدي بخاصة، وهذا عند العرب والمسلمين، وذلك لكي نضع أنفسنا نحن الجزائريين موضع تساؤل؛ أي كيف نُصلح منظومتنا التربوية؟⁽²⁰⁾

فشخصية المجتمع الجزائري وثقافته تتطلب منه رفع قيمة ومكانة اللغة العربية بين الأمم لأنها لغة غنية من الناحية الشرعية واللسانية والتراثية والأدبية والفلسفية. وحتى ترتقي هذه اللغة لا بُد من أن تُدرس هذه الميادين في أغلب مؤسساتنا التعليمية والتربوية باللغة العربية. ولأن اللغة العربية بدأت تُزحجُ من مكانتها في الحياة اليومية لحساب اللغات الأخرى سواءً في الخطاب الشفوي أو المراسلات أو وسائل الإعلام⁽²¹⁾.

أليس من الغريب حقاً أن طالب الجامعة عندنا ممن يتخصص في اللغة العربية لا يعرف الفرق بين الأصوات الصائتة والأصوات الصامتة، ويُدرِكُ ذلك تلميذ المرحلة الابتدائية في أوربا؟ وهو لا يعرف أنَّ علماء العربية القدماء -على اختلاف تخصصاتهم العلمية؛ منهم القراء، ومنهم النحاة، ومنهم علماء الأصول، ومنهم الفلاسفة- كانوا رواداً في دراسة الصوت اللغوي، وقدموا فيه إبداعاتٍ معروفة وبخاصة في درسهم للأداء القرآني في التجويد وعلم القراءات.

ولا يستطيع أحدٌ اليوم أن يُنكر أو يتجاهل مدى الجهود التربوية المبذولة في بلادنا لتسير عملية تعلم لغتنا العربية بكيفيات علمية معاصرة، حيثُ تطورت وسائل تعلمها، وطرائق تعليمها للناشئة قصد تنمية قدراتهم الإبداعية ونشاطاتهم الفكرية والاجتماعية، فهل يُحقق التعليم أهدافه في تمكين الناشئة من العربية وتحبيبهم إليها وإقبالهم عليها؟ وما تأثير الازدواجية اللغوية في استقرار العربية واستمرارها؟ وما مخاطر تأثير العولمة في حاضر العربية ومستقبلها وخاصة بعد أن اتخذت العولمة اللغة الانجليزية لسان القطب السياسي الأوحد ولسان اقتصاده، ومؤسساته المهيمنة وأذرعه الإعلامية، واحتكرت بالإنجليزية -أو تكاد- مفاتيح الانترنت وجُل ما ينتجه العلم وما يستحدث من التكنولوجيا؟

كل هذه الأسئلة وغيرها قد تتبادرُ على ذهن الباحث في أمر اللسان العربي، ولكنني أقول وببساطة أنه وبالرغم من كلِّ الجهود المبذولة في بلادنا للعناية باللغة العربية وتطويرها ورعايتها، فإن واقع تعليمها مازال يُعاني من نقائص وثغرات، كانت السبب الحاسم في تدني مستوى التعليم وعدم جدواه في اكتساب المتعلم نمط التفكير العلمي بصفة خاصة.

ولنأخذ على سبيل المثال تعليمية مادة القواعد في المرحلة الابتدائية، هذه المادة التي تُعاني نقصاً كبيراً من ناحية تعليمها، فهل هذا يرجع إلى المستوى اللغوي الذي تُقدم به مواد التدريس؟ أم في طبيعة البرنامج المقرّر؟ أم في الطريقة (أو الطرائق) المعتمدة في تدريس مادة القواعد؟ أم في طريقة تعامل التلميذ مع القاعدة النحوية؟

كثيراً ما نجد أنفسنا أمام نظامين لغويين مُتمايزين هُما: نظام اللغة العربية الفصحى، ونظام اللغة العامية، وهذا ما يُقدمه لنا الواقع اللغوي الجزائري بصفة خاصة والعربي بصفة عامة، أي أنّ المتعلم يجد نفسه أمام لغتين: لغة المنشأ (اللغة العامية) أو لغة الاتصال العفوي أو التلقائي التي يأخذها المتعلم من عائلته ثمّ من محيطه الاجتماعي واللغة العربية الفصحى التي يتلقاها في المدرسة، "إنّ مصدراً من مصادر قصور طُلابنا في التعبير باللغة العربية الفصحى، تلك العُربة اللغوية العجيبة بين لغة يتكلّمها التلميذ في البيت وفي الشارع، ولُغة يكتُب بها واجباته المدرسية، ويستمع فيها إلى مُحاضرات أساتذته، ويقدم بها إمتحاناته، فالعربي في جميع أنحاء العالم يقرأ، ويكتب و يؤلف بلغة ويتحدث و يُعني و يروي النكات و يتشاجر ويُداعب أطفاله بلُغة ثانية"⁽²²⁾. بل أكثر من هذا، أصبح المستعمل للفصحى في الظروف والأماكن العامة يُنظرُ إليه اجتماعياً كمُنحرف لغوي⁽²³⁾.

إذن ما يُعرفُ بالثنائية اللسانية (*La diglossie*) العربية بين الفصحى والعامية، وعلى المُدرّس أن يدرك ذلك تمام الإدراك، وهو يُدرّسُ مادةً من المواد في أيِّ مرحلة من مراحل التعلم. وبما أن المعلم هنا بصدد تعليم مادّة القواعد في المرحلة الابتدائية -بالتمثيل المسبق- عليه أن يُحدد أهدافه مُسبقاً من هذه العملية، وأولها: تمكين المتعلم من إتقان العربية الفُصحى في المستويين الشفهي والكتابي، ومساعدته على سرعة الفهم والاستيعاب في القراءة

والمطالعة والمحادثة. وثانيها: أن يقف المعلم موقف المفهم من تفاعل النظامين حتى يتسنى له الربط بين ما هو عامي وما هو فصيح؛ لأنه و أثناء التعلم كثيراً ما يحدث تداخل بين هذين النظامين أو المستويين، ويكون التأثير للمستوى الأكثر استعمالاً، حيث أن العادات اللغوية للهجية التي اكتسبها التلميذ في مرحلة ما قبل التمدرس وأثناء التمدرس ستؤثر -بلا شك- على ما يُعرض عليه في المدرسة من بُنى لغوية فصيحة، وتُشكل عراقل أمام عملية الاكتساب اللغوي.

خاتمة:

لقد ارتأيت تقديم هذا المثال البسيط الذي هو في حاجة إلى تعميق ورؤية لأن إشكالية تدريس مادة القواعد في المرحلة الابتدائية كبيرة ومُعقدة في تعلمها و قراءتها ، ولأنها تدخل ضمن إشكالية أكبر هي امتلاك الأمة العربية عامةً والجزائر بخاصة الوعي الكافي على ترقية اللغة العربية والإعلاء من شأنها، وامتلاك الاستمرارية في تطوير أساليب تعليمها و طرائق توصيلها للناشئة.

وإلى جانب بعض الحلول التي ذكرتها سالفاً ينبغي العمل على تنشيط المجامع اللغوية في البلاد العربية عامةً من أجل تسهيل قواعد اللغة العربية وتبسيطها، وإثراء مُعجمها بالمصطلحات العلمية والفنية الحديثة. وأما عندنا في الجزائر فينبغي العمل على استنباط طرق علمية وتربوية لتسهيل تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، مع الإكثار من معامل ومخابر تعليم اللغة العربية بالطرق السمعية والبصرية في مختلف جامعاتنا.

كانت هذه الأمور باختصار وتركيز مجتمعةً يُمكن عن طريقها -في نظري- أن يُصبح اللسان العربي لساناً علمياً يتبوأ مكانته المرموقة في المجتمع الدولي كما كان في السابق، غير أن قضايا هذا اللسان ومُشكلاته المتعلقة بواقعه، حاضره، ومستقبله في عصرٍ أبرز سماته العولمة و المعلوماتية وتطور وسائل الاتصال. لا يُمكن أن تُحل بطريقة فردية بل لابد أن تتضافر الجهود لحلها عبر طرح المشكلة و الإحساس بها أولاً، ثم العمل على حلّها عبر احترام

إرادة الجميع و إعمال النظرة العلمية الموضوعية ليس في الجزائر فحسب ،بلّ في الوطن العربي عامة.

الهوامش:

01- Jean pierre bronkart,«théorie du langage»,pierre mardaga – éditeur 2eme éditeur,1979, P :89

Jbid, P89 -02

Jbid, P89 -03

04- نعمان بوقرة " اللسانيات، اتجاهاتها و قضاياها الراهنة"، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط2 عمان الأردن 2009، ص: 56-57.

05- يُنظر: ميشال أريفيه، "البحث عن فردينان دي سوسير"، ترجمة مُجد خير البقاعي،مراجعة: نادر سراج، دار الكتاب الجديد المتحدة،ط(01) بيروت -لبنان، 2009، ص: 07

06- يُنظر: عبده الراجحي ، " علم اللغة التطبيقي و تعليم العربية " ص: 110 وما بعدها

07- يُنظر جون ليونز، "نظرية تشومسكي اللغوية"، ترجمة و تعليق: حلمي خليل، ص 09 و ما بعدها

08- يُنظر محمود السعران ،"علم اللغة -مقدمة للقارئ العربي-" ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (د-ط) ،بيروت-لبنان،(د-ت-ن)،ص:22،23،

09- يُنظر: المرجع نفسه، ص: 26-45

10- عبد السلام المسدي،"اللسانيات و أسسها المعرفية " ،المكتبة الفلسفية، الدار التونسية للنشر،تونس،1986،ص:07

11- يُنظر : مازن الوعر،"قضايا أساسية في علم اللسان الحديث "، دار طلاس،دمشق-سوريا،1988،ص:368،369

12- حلمي خليل ،"دراسات في اللسانيات التطبيقية"،دار المعرفة الجامعية،(د-ط)، مصر،2000،ص:09

13- يُنظر: منذر عياشي ،"قضايا لسانية و حضارية"، دار طلاس،ط(11)، دمشق- سوريا،1991،ص:01

14- يُنظر: محمود الذوايدي ،"في مخاطر فقدان العلاقة العضوية بين المجتمعات العربية و لغتها"،مركز دراسات الوحدة العربية، ط(01)، اللسان العربي وإشكالية التلقي، ع 55،بيروت-لبنان 2007،ص:42

15- المرجع نفسه،نفس الصفحة

16- غوستاف لوبون، "حضارة العرب"،ترجمة:عادل زعيتر الحلبي،ط(04)، القاهرة-مصر،1964،ص:440

17- عبد العزيز بن عبد الله ،"التعريب و مستقبل اللغة العربية"، معهد البحوث و الدراسات العربية،(د-ط)،القاهرة-مصر،ص:07

- * تولى الخلافة بعد أبيه مروان بن عبد الملك في عام 65 هجرية واستمر في الحكم 21 عاماً (65-85هـ)
- 18- عبد الحميد عبد الواحد، "اللسان العربي : الحاضر و الأفاق"، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط(01)، اللسان العربي وإشكالية التلقي، ع55، بيروت-لبنان، 2007، ص:64
- 19- بلقاسم سلاطنية، "حقيقة العولمة"، مجلة العلوم الإنسانية"، ع (121)، الجزائر، 1999، ص:14، 15
- 20- يُنظر: جلال أمين، "العولمة و التنمية العربية": 1798-1998، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ع(39)، 1997، ص:117
- 21- يُنظر: عبد المجيد عمراني، "نحو منظور جديد لتدعيم و تطوير اللغة العربية في ظل العولمة"، مجلة اللغة العربية ، ع(02)، يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية، 2000، ص:67
- 22- مُحمد زكي العشماوي، "الرؤية المعاصرة في الأدب و النقد"، دارالنهضة العربية للطباعة والنشر، ط(01)، بيروت-لبنان، (د-ت-ن)، ص:124
- 23- محمودي الذوايدي، " في مخاطر فقدان العلاقة العضوية بين المجتمعات العربية و لغتها"، ص:51